حيران بن حيران

فتحت عيني فوجدت نفسي جالسا على مقعد واسع في المقدمة، أمامي مكتب كبير، صورة لشخص لم أعرفه، ملفات كثيرة مفتوحة ومتناثرة. الغرفة بدت كأنها غرفة اجتماعات، استغرقت فترة لأتذكر من أنا أو ماذا جاء بي هنا لكنى لم افلح، لم يمهلني القدر لأتذكر، فقد انفتح الباب فجأة ودخلت فتاة مسرعة وهى ترددد:

- ماهر بيه، هذه ملفات صفقة الحديد، وهذا جدول أعمال الغد ينتظر الموافقة، وهذا...

أوقفتها بإشارة من يدي، فبدا عليها الخوف، تراجعت وخرجت بنفس الطريقة التي دخلت بها. انغمست في المقعد أكثر محاولا احتواء القشعريرة التي اجتاحتني، ما زلت لم أدرك بعد من أكون، أو ماذا افعل هنا. فتحت الورق الذي تركته لي، أوراق كثيرة وأرقام أكثر، لم آخذ وقتا لأدرك كنه تلك الأرقام المشبوهة. تحسست جيبي وأخرجت المحفظة، فتحتها ورحت أتأمل في البطاقة الشخصية: "ماهر عدنان الديب - رئيس مجلس إدارة شركات ....".

ربما حان الوقت لاستنشاق بعض الهواء الطلق، فتحت الباب وخرجت. قابلني الهواء الطلق بلسعة برد جمدت الدم في عروقي، أحكمت إغلاق المعطف وانحنيت لأدخل السيارة، فسمعت جلبة وصراخا على بعد مترين. هنالك وقفت امرأة ذات مظهر بائس تصيح وتولول: الله يخرب بيتك يا ماهر بيه، قتلت القتيل ومشيت في جنازته. جروها جرا بعيدا عنى، زججت بنفسي في السيارة، لا أريد أن أفكر ولا أريد أن أتذكر. المشاعر تؤلمني والتفكير يقتلني. لا أتذكر من أنا والأدهى أنني أعتقد أنني ارتكبت جرائم كثيرة. فتحت المحفظة مرة أخرى، فتشتها، كانت هناك صورة لي مع رجل بدت عليه علامات السلطة، ثم صورة قديمة مع امرأة وطفلين. لا أعرف أيًا من تلك الوجوه، أسندت ظهري إلى المقعد وعدت برأسي إلى الخلف، عيني أصبحت فجأة ثقيلة والتعب يتخللني. حان الوقت لقيلولة قصيرة، لا أعرف وجهتي، لكنى أعرف أنني متعب جدا لأفتح عيني. أغلقت عيني ورحت في سبات عميق.

فتحت عيني على صوت طلقات. كنت على الأرض مقيدًا يحيط بي العديد من رجال البوليس، وجهي مقابل للأرض، الأرض كانت صلبة، والوجوه من حولي وجوه صغيرة، ربما طلاب في العام الجامعي الأول.

- عمر السيد شرف: أنت متهم بمحاولة قلب نظام الحكم.

يقف الضابط متحدثا إليَّ، بدت على وجهي البلاهة رفعت وجهي عن الأرض محاولا أن أتكلم، فخرج صوتي ضعيفا واهنا : أنا ماهر عدنان الديب ولست عمر .....

رفعوني من على الأرض ثم رموني في إحدى تلك العربات الكبيرة- عربات أمن الدولة التي لا تصلح لنقل خنازير. كان من حسن حظي أن جاء القرار "الحبس أربعة أيام على ذمة التحقيق، ويعرض يوم 2010-7-19 على النيابة العامة"

أتذكر ذلك التاريخ جيدا، كان ذلك اليوم يوما مميزًا، فقبل ساعات من العرض على النيابة العامة أجبرت على كتابة اعتراف كامل بخط اليد، وقعت بعدها مغشيا عليَّ من شدة التعذيب.

- الميدان يا أسطى.

أيقظني صوت الشاب من ذاتي، لم أكن نائمًا، كنت مستغرقا في ذهولي الذي اعتدته في الآونة

الأخيرة. بالطبع لا أعرف ما جاء بي إلى تلك السيارة، لعل السيارة هي الأخرى مسروقة. لا أعرف أيضا هذه المرة من أجسد، لقد أصبحت روحا تائهة ، وأمسى الجسد يسيطر على شيئا فشيئا. مثل ذلك الجسد الثرثار – سائق التاكسي- الذي لا يكف عن الكلام، ليته يصمت فيتركني أفكر قليلا. لكن الرجل يتحدث ويتحدث، يتحدث عن مجارى المياه التي حلت محل الأرض في الشارع الذي يقطن فيه. يتحدث عن الغلاء الذي انتشر، وعن الأجور المنخفضة وعن الرشاوى، حتى أنه لم يستحِ أن يتحدث عن الأقراص التي يتعاطاها. فكرت أن أنام قليلا، فيتركني واتركه كما حدث مع ماهر وعمر، لشدّ ما يشعرني هذا الجسد بمشاعر بغيضة. أوصلت الشاب إلى وجهته ثم ركنت العربة في مكان آمن. استلقيت على المقعد الخلفي وحاولت أن أنام ، تقلبت كثيرا علّ النوم يأتيني بغتة لكنى لم افلح. انطلقت بالسيارة مرة أخرى . الازدحام هذه المرة كان رهيبا، حركة السير بطيئة وأنا كنت مختنقا، أحاول التخلص من الازدحام والهروب إلى طريق آخر بأقصى سرعة. سرعة السيارة عالية يدفعها جنوني، لم أر ذلك القادم من بعيد بسرعة عالية. وفى أقل من لحظة على صوت الصدمة وتلاشت كل الصور من أمام عيني.

هذه المرة أفقت على أصوات تشبه تمايل أغصان الشجر. لم أعرف في أي جسم أنا، ربما أكون في جسم حيوان، وربما في لا جسم. الناس تنساب من حولي وتخترقني. أحاول أن أتذكر شكلي، كيف كانت عيني، كيف كانت أذني وفمي، هل كنت صغيرا أم كبيرا؟ هل كنت طالبا للحرية مثل عمر، أم كنت واشيا مرتشيا مثل ماهر؟ هل كنت سائق التاكسي المفعم بالمرارة؟ هل كنت صفرًا؟ نظرت حولي مرة أخرى ودققت النظر. العديد من الأشكال المعروفة، معظمها مثلى حائرة تائهة، بعضها ينساب الناس حولها وداخلها، بينما بعضها يستقر مثلي على جانب الطريق منتظرا الجواب